



# طَلَقَتِ نَبْرَةَ

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

## طلقة تنوير 69: كورونا وشؤون عربية

### نظام كوني جديد على أعتاب كورونا

#### بشار شخاترة

من خصائص الأحداث الكبرى في التاريخ أنها تصبح نقاطاً فاصلة في مسيرة الفكر والأيديولوجيا، وفي مسيرة النظم السياسية والاقتصادية السائدة، وهي تمهد الطريق لولادة نظام جديد يخلف النظام القديم. وقد اعتادت البشرية في مسيرتها الطويلة أن تجد في الحروب الكبرى نقاطاً فاصلة لتبدأ صفحة جديدة يريد القادمون الجدد أن يفرضوا فيها منهجهم وفكرهم بدلاً عما هو سائد.

البشرية الآن في عين عاصفة الكورونا التي تجتاح الكوكب، وتجري التغيرات على مستوى الفكر والسياسة والاقتصاد بسرعة لا تقل عن سرعة انتشار فيروس كورونا، وبشكل قد تعجز النخب عن مجاراة تطوراتها، حيث كشف الوباء عن اهتراء المنظومة السياسية والاقتصادية النيوليبرالية التي تحكم العالم منذ تفرقت الولايات المتحدة بحكمه، ومذ فرضت فكرها المستند إلى تطور البنية الرأسمالية العالمية بفعل تطور تكنولوجيا المعلومات وهيمنة الرأسمال المالي على منظومة الفكر الرأسمالي واندفعت حركة رأس المال نحو تحقيق الربح الأسرع والأكثر أمناً مسقطاً ركناً مهماً قامت عليه الرأسمالية وهو استنادها إلى الأساس القومي والدولة القومية في عملية الإنتاج والتسويق والوصول إلى الأسواق والمواد الخام.

أفادت دولٌ كثيرة في العالم من حالة التطور التي وصلت إليها الرأسمالية الغربية، حيث أدى ذلك إلى توطين الصناعة في بلادٍ كثيرة أهمها الصين، وهذا أدى بالنتيجة إلى تركيز ثروات كبيرة خارج حدود القطب الرأسمالي، وهذا ليس بالجديد، ولكن ما كشفه كورونا هو أن مراكز الإنتاج لم تعد كما هو المألوف في نمط الإنتاج الرأسمالي التقليدي، من حيث قرب الإمدادات وضمن استمراريتها، نظراً لكون رأس المال انتقل بمراكز الإنتاج عبر القارات حيث رخص الأيدي العاملة والتسهيلات، لتتكشف أزمة العولمة التي بنتها الشركات العملاقة، والتي صاغت النظام الاقتصادي العالمي على أساس استمرار وسهولة ووفرة حركة رأس المال والسلع والموارد والإمدادات، ففجأة تتوقف الصناعة والتجارة الدولية وحركة النقل الدولي بكافة أنواعها، وبشكل غير مسبوق في التاريخ، وبسبب ضغط الوباء وسرعة انتشاره زاد الطلب على الإمدادات الطبية بشكل أساسي، التي ظهر جلياً أنها غير متوفرة بالشكل الكافي، كما تم وضع قيود من قبل مراكز الإنتاج على انتقال المستلزمات الطبية.

## طلقة تنوير 69: كورونا وشؤون عربية

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 أيار 2020

- نظام كوني جديد على أعتاب كورونا/ بشار شخاترة
- الصحراء المغربية من منظور التجزئة الاستعمارية/ إبراهيم حرشاوي
- كونوا واقعيين ودافعوا عن مصالحكم/ كريمة الروبي
- الأيقونة المنسية: زليخة عدي/ عبدالناصر بدروشي
- من أين أتت الكتابة العربية؟/ مراجعة كتاب/ فارس سعادة
- ياسين الحافظ وكتابه "في المسألة القومية الديموقراطية"/ إبراهيم علوش
- الصفحة الثقافية: السفر عبر الأزمان في فيلمي "مريم" و"الاعتراف"/ طالب جميل
- قصيدة العدد: في المغرب العربي/ بدر شاكر السياب
- رسم العدد: عيد العمال ورسم أخرى

لمتابعنا انظر:

لمتابعنا على فيسبوك، ابحث عن:  
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر  
[www.freearabvoice.org](http://www.freearabvoice.org)

راسلنا على:

[arab.nationalist.moderator@gmail.com](mailto:arab.nationalist.moderator@gmail.com)



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد



وفي حال طالبت الازمة فإن مزيداً من القيود على انتقال السلع سيفرض، وقد ظهرت عورة العولمة في الحالتين الإيطالية والإسبانية بالذات، كونهما من ضمن منظومة أساسية في النظام المعولم، وجزءاً من الاتحاد الأوروبي، فلم تعد هناك أوروبا واحدة، ولم تعد هناك حرية تنقل للأفراد ورأس المال والسلع والمستلزمات، بل أصبح لدينا بين عشية وضحاها حدود للدولة القومية، وأمة تضمها حدود تلك الدول، وهذا لا شك في أنه سيزيد من فرص اليمين الشعبي في المستقبل، خصوصاً إذا ما فشلت الإجراءات التي تقوم بها الحكومات الأوروبية الحالية، والتي كانت توجه خطاباً تاريخياً يقصد منه عزل اليمين في بلادها لصالح الانفتاح وأوروبا واحدة والعولمة، ولصالح الشركات المعولمة التي كانت ترى عالماً واحداً بغاية جني الأرباح، مع تمسكها بتحالفها مع الدولار والقوة العسكرية الأمريكية التي تبادلته معه المنفعة، ويجب ألا نستغرب إذا كشف كورونا مزيداً من عيوب الاقتصاد الغربي، وتحديدًا الأوروبي، الذي ظل أقل جنيًا للمنافع من الضفة الغربية للأطلسي، فانهيار المنظومة الطبية في كل من إيطاليا وإسبانيا كان أول العيوب في هاتين الدولتين، وسنرى مدى متانة هذا النظام في أهم دول أوروبا في فرنسا وألمانيا وبريطانيا.

الحضور الصيني في هذه الجائحة الكونية هو العلامة الفارقة ليس لأن الظهور الأول للوباء كان فيها، وإنما للغياب الأمريكي عن الساحة الدولية في مواجهة هذا الوباء، وعجزها عن تقديم أي مساعدات بقصد أو بغير قصد، كما في الحالة الإيطالية مثلاً، وكذلك الحالة الصربية والإسبانية، أو لكون الولايات المتحدة تفرض حصاراً من قبل على كثير من الدول في العالم مثل سورية وإيران وفنزويلا واليمن وغيرها، فأظهر الفيروس عجز الولايات المتحدة، مع غطرستها، الوجه القبيح للقوة الأولى في العالم، ومدى سقوطها الأخلاقي وسقوط أيديولوجيتها المعولمة هي وشركاتها وحليفاتها.

كما كانت قبلتنا هيروشيما وناكازاكي إيذاناً بنهاية الحرب العالمية الثانية، وإيداناً بنهاية عصر الاستعمار القديم - فإنهما أعلنتا، بصوت مدو وخراب شامل، عن صعود الولايات المتحدة الأمريكية إلى واجهة الهيمنة على العالم، فقد كانت تلك الجريمة النووية فصلاً جديداً من تطور الرأسمالية العالمية بالصيغة الإمبريالية مع الولايات المتحدة كقائد لها - فإن الصين دخلت من باب جائحة كورونا، ولكن بصيغة مغايرة تماماً لتلك التي دخلت فيها الولايات المتحدة مسرح الأحداث العالمي، فإذا كان لنا أن نتنبأ فإننا نستشرف ملامح مختلفة للعلاقات الدولية، من حيث أن هناك مجالاً أوسع للمسائل الأخلاقية في السياسة الدولية، وهذا ليس من باب الأمان، فمن الملاحظ اقتحام الصين لعقر دار أوروبا، مقدمة المساعدات الطبية، ورافدة دول فيها بالكوادر الطبية، في الوقت الذي تخلفت عن ذلك الولايات المتحدة وحليفاتها الكبرى بريطانيا وألمانيا وفرنسا، وتبعته الصين روسيا لترتفع أعلامهما بدلاً من علم الاتحاد الأوروبي، وأينما نظرت تجد الصين تحمل المساعدات في كل مكان للبلاد المنكوبة من إيران إلى صربيا إلى غيرهما، ولأول مرة منذ انهار الاتحاد السوفيتي تبرز قوة دولية هامة على مسرح الأحداث قادرة على تقديم العون والمساعدات غير الولايات المتحدة، ومن المهم أن ننظر إلى أنها أول مرة منذ انهيار الدولة العربية الإسلامية تصعد إلى واجهة الصدارة العالمية أمة تحمل معايير أخلاقية سبق أن عانت مر الاحتلال والهيمنة الاستعمارية كالصين.

إن التفاؤل بعدالة أكبر في ميزان العلاقات الدولية ينبثق من الخلفية الفكرية والحضارية للأمم التي تتصدر المشهد الدولي، فالولايات المتحدة مثلاً كانت استكمالاً للفكر الرأسمالي الذي أنتجته عوامل متعددة ولدت من رحم التجارب التاريخية التي عصفت بالقرارة الأوروبية منذ فجرها. فالمنطق المتوحش لعزلة أوروبا خلف بردها وبعدها عن مراكز الحضارة التاريخية في المشرق، وانطلاق قاطرة التطور فيها ارتبطاً كلياً بالتجارة والبحث عن الربح الذي انطلق في



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

بداياته الأولى مع المدن الإيطالية الأقرب إلى الشرق، والتي ابتدعت كثيراً من الابتكارات فيما يتعلق بالتجارة البحرية والتأمين والأوراق التجارية، هذه المدن التي لم تكن لديها أي غضاضة في أن تدعم من جهة الحملات الصليبية ومن جهة أخرى تمد العالم الإسلامي بالموء والأسلحة وما يتطلبه في سبيل الربح والتجارة، ولم تجد مشكلة في أن تشن هجوماً تستولي فيه على بيزنطة، ومركزها في القسطنطينية، في حين الذي أوهمت فيه بيزنطة أنها جاءت لنجبتها من حصار المسلمين وذلك لتستأثر بتجارة البحر المتوسط.

مثل هذه العقلية استنسخت ذاتها في عموم أوروبا، وأهمها إنجلترا، كونها دولة بحرية، ولا نبالغ في القول إن كارثة كالتاعون الأسود الذي فتك بالملايين في أوروبا أنبتت وعياً في أوروبا من قبيل أن الأوبئة لها فوائد لها بأنها تخلق فرصاً جديدة لمن بقوا أحياء، وأن الثروة من المؤكد سيقبل عدد الذين سيتقاسمونها، ومثل هذا المنطق وجد له منظرين بعد قرون في أوروبا مثل مالتوس وطروحاته عن السكان.

إن نهضة أوروبا الصناعية بفضل تراكم رؤوس الأموال ونشوء الرأسمالية الصناعية وحربها على كل ما يعيق الربح والعمل، حتى لو كان الثمن حياة البشر من عمال وعبيد يستجلبونهم أو موارد أمم يسرقونها، هي الخلفية (الحضارية) لملايين اللصوص الذين جلبتهم أوروبا إلى العالم الجديد في أمريكا، وقتها نفهم خلفية فكرة البقاء للأصلح والانتخاب الطبيعي. هذا في مقابل حديثنا عن قوة صاعدة كالصين تشكل وعيها تجاه العالم من الإذلال الذي تعرضت له من الاستعمار البريطاني ولاحقاً تقاسم النفوذ والمنافع في الصين بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها في القرن الثامن عشر، فالذاكرة الصينية ووعي العالم الخارجي بالنسبة لها تشكل جريمة "حرب الأفيون" علامة فارقة فيها، لذا هناك فرق بين خلفية حضارية وأخرى إن صحت المقارنة أساساً.

العالم عاش المرحلة الفكرية الأوروبية منذ ما يزيد على خمسة قرون تناوب فيها الأوروبيون على نهب العالم وخلفتهم الولايات المتحدة، حيث لم تكن ثمة قيمة سوى جني الأرباح وتكديس رؤوس الأموال، لذلك ما نقول به هنا هو أننا أمام بداية سقوط أيديولوجيا رأس المال، انهيار مدو لمنظومة الخداع الإمبريالي حول تحضر الرجل الأبيض أو بالأحرى تميز الرجل الأبيض الذي لا يرى في باقي البشر سوى عبيد أو أعداد زائدة تقاسمه هذا الكوكب من دون فائدة، هذه العقيدة الغربية هي التي نرى أنها سقطت أمام اختبار الكورونا.

عوداً على بدء، فإن المحنة الكونية الراهنة أعادت تصويب مفاهيم نوبان الدولة وحدودها وتلاشي القومية لصالح أفكار معولمة عابرة للحدود من أجل إتاحة فرص الربح للشركات الكبرى. الجائحة الكونية أعادت الاعتبار للمفهوم القومي كعيار مرجعي للعلاقات الدولية متجاوزةً أفكار العولمة، أو أفكار أمة الدين، كما يتغنى الكثير من الإسلاميين في وطننا العربي، فايران المسلمة لم تجد من يمد لها يد المساعدة سوى الصين الماركسية القومية أولاً، والبوذية ثانياً، ولسنا نفهم أمام الوباء أن نفرق بين سني وشيعي، فالفايروس لا يفرق بينهما، ويكفي أن إيران تنطق بالشهادتين، وهذه تكفيها للحكم عليها بالإسلام، ولكن أين أمة الدين (الإسلام) مما تعانيه إيران اليوم في ظل هذه الكارثة الوبائية؟!

وكما انكشف وهم العولمة انكشف معها مفهوم الخصخصة، وظهرت سرعة الاستجابة للكارثة في ظل نظام القطاع العام والحكومة المركزية لتطوق الكارثة وتحصرها وتتهيأ، مقابل الانفلاش الذي ظهرت فيه أنظمة الانفتاح والخصخصة، ولعل ما ظهر هو فقط قمة جبل الجليد من وهن منظومة الخصخصة.

ولعله من أهم مخلفات الوباء سقوط قناعات منظومة مؤسسات المجتمع المدني أو منظومة التمويل الأجنبي، ولعلها الغائب الأكبر عن مسرح الكارثة. التمويل الأجنبي ومنظوماته كانت تقدم نفسها على أنها البديل الليبرالي عن التنظيم السياسي الشمولي والعقائدي، وقد برزت الحاجة لإعادة الاعتبار للتنظيم الشعبي الذي يقع عليه عبء الدور التعبوي ودور الوسيط بين الدولة والجماهير، فوجود التنظيم الجماهيري الممتد بين الجماهير يستطيع أن يزيد من سرعة الاستجابة الجماهيرية مع الكوارث في ظروف يكون عامل الوقت فيها حاسماً.

العرب أمام خيار السير نحو الوحدة القومية واستعادة هيبة الدولة المركزية التي بها تقطع أشواطاً طويلة لن نبليها بالانفتاح واللامركزية والخصخصة. نحن أمام فرصة للتفكير الجاد في أهمية وجود التنظيم العقائدي وأهمية الانضواء تحت لوائه. نحن العرب على أعتاب فرصة هامة للتحويلات العالمية. نحن معنيون أن نحجز لنا مقعداً فيها، لا أن نخرط في سلسلة الحملات الغربية على الصين.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

## الصحراء المغربية من منظور التجزئة الاستعمارية

إبراهيم حرشايوي



قد تكون القراءات التي تربط ظهور ما يسمى «بقضية الصحراء الغربية» بالمخطط المرسوم من قبل الاستعمار الرامي إلى فصل دول المغرب العربي عن الصحراء الكبرى مهمشة أو غير مطروحة أصلاً. لذا يتطلب هذا البعد الاستراتيجي إعادة النظر في عدم حصر جذور هذه القضية في بعدها الإقليمي، أي «كصراع مغربي-جزائري» للسيطرة على المغرب العربي، أو طرحها، كما تفعل الكثير من التيارات اليسارية، «كنضال الشعب الصحراوي» الذي يواجه «النظام المغربي التوسعي»، بالرغم من أن قبائل الصحراء هم خليط عربي-بربري، كالأغلبية الساحقة من سكان المغرب العربي، ولا يتميزون بصفات إثنية أو قومية خاصة بهم تجعلهم شعباً قائماً بحد ذاته.

من ناحية أخرى، لا يسود في الطرح المغربي أي التباس في تعريف قضية الصحراء كقضية وطنية تتأل شرعيتها من رغبة الدولة في استكمال وحدتها الترابية، إلا أن سرديّة البعد الاستعماري في هندسة التجزئة المغاربية باتت مغيبة مع أفول الحركة الوطنية، علماً أن الخطاب الرسمي المغربي يحرص كل الحرص على مهادنة الطرف الإسباني بحكم ارتباط هذا الملف بملف سبّية ومليبية والجزر المحتلة. وتبقى المفارقة قائمة في موقف الدولة الجزائرية التي تجعل من مسألة الصحراء «قضية تحريرية» تخص «الشعب الصحراوي» متناسية بذلك المشروع الفرنسي التجزيئي الذي كاد يفصل الصحراء الجزائرية عن باقي التراب الجزائري خلال السنوات الأخيرة لثورة نوفمبر.

بخصوص الطموح الاستعماري في عزل أجزاء شاسعة من الصحراء الكبرى عن الموجة الاستقلالية التي عرفها المغرب العربي إبان خمسينيات القرن الماضي، ينبغي طرح الحالة السياسية عشية استقلال كل من المغرب والجزائر ومنطقة غرب إفريقيا. فبالنسبة للمغرب، طفاً على سطح الخطاب السياسي بعد إحرازه الاستقلال سنة 1956 مفهوم «المغرب الكبير»، ما أسفر عن ظهور مطالب تجاه موريتانيا قوبلت باستجابة من تيار واسع داخل ذلك البلد، حيث كانت هذه الاستجابة هي المنصة التي تشكل بموجبها حزب النهضة الموريتاني المتأثر بالفكر الناصري. وقد تعرض دعاة الوحدة مع المغرب في موريتانيا - الذين كان يتزعمهم حرمة ولد بيبانا - إلى موجة من الاعتقالات والنفي على أيدي الاستعمار الفرنسي.

ومما يؤكد على الإجماع الوحدوي وأهمية استرجاع الأقاليم الصحراوية من قبضة الاستعمار الفرنسي والإسباني هو الموقف الذي صرح به زعيم المقاومة المغربية عبد الكريم الخطابي في القاهرة سنة 1957: «إن فرنسا لا تزال تسيطر بقوتها على الصحراء المتممة للمغرب والتي لا يمكن للمغرب أن يحيا بدونها. أما موريتانيا فليست إلا جزءاً من البلاد المغربية... فمن صالح المغرب أن يكافح في سبيل استقلاله الحقيقي ما دام الشعب الجزائري يفتق راحة فرنسا ويرغمها أن تعيش في فقر وقلق».

أما على الصعيد السياسي فتمت معاكسة العمل الوحدوي عبر «المشروع الإقليمي للصحراء»، الذي حاول الاستعمار الفرنسي من خلاله اقتطاع أجزاء واسعة من الصحراء الجزائرية بعد اكتشاف النفط والغاز والحديد فيها،



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

الأمر الذي كان يؤشر على ضمها لمنطقة الساحل ضمن خطة إعادة تركيب كيان "غرب أفريقيا الفرنسي". وقد أطلقت فرنسا الديغولية (نسبة للرئيس الفرنسي شارل ديغول) في هذا السياق "مشروع قسنطينة" الرامي إلى استغلال الثروات الباطنية للصحراء الجزائرية بعدما أسست لهذا الغرض "المنظمة المشتركة لاستغلال الثروات الصحراوية التي عُززت فيما بعد بقانون البترول (code de petrole) لمنح امتيازات واسعة للشركات الأجنبية للاستثمار في الصحراء الجزائرية.

رافقت هذا المشروع الديغولي هندسة مؤسسية تجسدت في استحداث "وزارة الصحراء" فاتحة المجال لعدة صيغ تمكّن فرنسا من البقاء في الصحراء بضمها كمقاطعة فرنسية أو عبر إقامة دويلة صحراوية تابعة لها توظفها كقاعدة عسكرية وكمركز لتجاربها النووية. وكانت قيادة الثورة الجزائرية مدركة تمام الإدراك للنوايا الفرنسية، فكثفت من العمليات الفدائية وكثفت من النشاط السياسي الرافض لاقتطاع الصحراء، مما جعل قضية الصحراء نقطة ساخنة وحجر عثرة خلال مفاوضات الاستقلال بين الطرفين.

أما إسبانيا فكانت متشبثة بالدوافع الاقتصادية والإستراتيجية ذاتها للحفاظ على الصحراء المغربية، خصوصاً من ناحية استغلال مناجم الفوسفات التي تم اكتشافها في بوكراع. ويجدر الذكر أن إسبانيا اتخذت منذ مطالبة المغرب باستقلال الصحراء موقفاً ينتزع الصفة المغربية للصحراء عبر عدم اعتبار النزاع مع المغرب أمراً ثنائياً مما دفعها إلى أن تقوم بتدويل هذه القضية وطرحها كإشكالية تخص عدة أطراف في الإقليم، مرسخة بذلك الحالة التجزئية في المنطقة.

يتضح من هذا الموقف التخوف الذي كان يعتل في مخيلة المستعمر الإسباني إزاء الرغبة المغربية باسترجاع أقاليمه الصحراوية، علماً أن الصحراء كانت بالنسبة لإسبانيا مرتبطة إستراتيجياً وعملياً بأمن "جزر الخالدات" (المسماة غربياً جزر "الكناري") التي تعتبر تلك الجزر، مع بقية الثغور المغربية المحتلة، البوابة الرئيسية لبسط النفوذ الإستراتيجي في المغرب العربي ومنطقة الساحل وخليج غينيا. وقد شهدت "جزر الخالدات" دورها نشوء وعي استقلالي في مرحلة التحرر الوطني، تطور لاحقاً إلى حركة سياسية عرفت باسم "حركة تقرير المصير واستقلال الأرخيبيل الكناري"، تزعمها أنطونيو كوبيلو، داعياً لانتماء هذه الجزر للفضاء المغربي انطلاقاً من "الهوية الأمازيغية" لسكانها الأصليين.

من جهتها تركت الجزائر، باعتبارها الدولة الحاضنة لهذه الحركة في جزر الخالدات/الكناري، المجال للمغرب لاستغلال التناقض بينها وبين إسبانيا عبر الخلط بين الدعم الذي تقدمه الجزائر لحركة استقلال الخالدات ولجبهة البوليساريو الانفصالية، محملة إياها مسؤولية حالة عدم الاستقرار في المنطقة بهدف إقناع مدريد بالموقف المغربي إزاء الصحراء.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المنطق القطري الضيق والمتجاهل لاستفادة الجانب الإسباني من المعادلة بصفته الطرف الأقوى القادر على التحكم في ديمومة النزاع بمواقفه المتأرجحة وسياسة فرق تسد. ويبقى تاريخ مرحلة الاستقلال خير شاهد على الدور الرئيسي للاستعمار في فرض التجزئة وتعزيز العصبية المحافظة عليها.

وتمثل في هذا المضمار دوافع العملية العسكرية المشتركة التي شنها الاستعمار الفرنسي والإسباني سنة 1958 تحت اسم "ecouvillon"، أو "المكنسة"، في الصحراء المغربية والتي عبرت عن المصلحة الاستعمارية العليا في القضاء على التلاحم الميداني الذي حصل بين عناصر مغاربية متحدية لحدود المستعمر. وهي العملية التي تذكر المغاربة بالتحالف الإسباني-الفرنسي خلال عشرينيات القرن الماضي لمنع اتساع رقعة المقاومة نحو العمق المغربي بقيادة عبد الكريم الخطابي.

بين أمس واليوم، ما يزال قطار التجزئة يجول ذهاباً وإياباً في معظم أقطار المغرب العربي على غرار بلدان المشرق، مستفيداً من حالة التجزئة التي يكرسها النظام الرسمي العربي من ناحية، وغياب المشاريع التكتلية والوحودية من ناحية أخرى. فبعد موجة "الربيع العربي" وإسقاط الدولة الليبية من طرف الحلف الأطلسي سنة 2011، برزت الجهوية والقبلية في هذا القطر المغربي بطريقة لم يسبق لها مثيل، إذ وصل الأمر إلى إقتراح أمريكي لتقسيم ليبيا إلى ثلاث دول، وهو التصريح الذي أطلقه المساعد الأسبق للرئيس ترمب سيباستيان غوركاس سنة 2017. أما الجزائر فاصبحت مكشوفة لمشروع "دولة طوارقية" في الصحراء بعد تجربة إعلان استقلال "الأزواد" شمال مالي سنة 2012



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

والتدخل الفرنسي هناك بذريعة محاربة الإرهاب، بالإضافة إلى التحدي الذي تشكله حركات أمازيغية انفصالية في كل من غرداية ومنطقة القبائل.

ولا تختلف الحالة المغربية كثيراً عن الحالة الجزائرية بعد ظهور عوارض انفصالية واضحة في مناطق مختلفة من المملكة وعلى رأسها منطقة الريف التي شهدت حراكاً جماهيرياً اتسم بروح انفصالية سنة 2017. وتبقى في نهاية المطاف موريتانيا بمجتمعها القبلي متخبطة بدورها بين مطرقة الجبهة وسندان الانفصالية الزنجية جنوب البلاد. وعلى أي حال، تبدو قضية الصحراء المغربية في ظل سياسات البلقنة التي تتعرض له الدول العربية أكثر ترشحاً في أن تصبح قطعة من قطع المشهد الفسيفسائي إذا استمرت الحالة السياسية على ما هي عليه.

## كونوا واقعيين ودافعوا عن مصالحكم كريمة الروبي



في زمن الفتن وضياع البوصلة، ما علينا سوى أن نتتبع خطى أعدائنا لنعرف الحقيقة التي ضلت طريقها وسط كل هذا الكم من الزيف والتشويه، ونسأل أنفسنا مع من يقف العدو وضد من يحارب؟ ما هي قائمة أهدافه التي يعلنها بوضوح وما هي إنجازاته التي يفتخر بها؟ حينها لن نسقط في الاختبار أو نصبح دمية بيده يحركها كيفما يشاء لتنفيذ أهدافه.

ولكن الحكم على الأمور بالعاطفة هو آفة الشعوب، لذا يسهل توجيه تلك العاطفة في اتجاهات خاطئة ما يدفعها لاتخاذ مواقف ضد مصالحها من دون أن تدري.

ولا شك في أن كل دولة وقفت بوجه الإمبريالية قد صُوبت تجاهها سهام الدعاية السوداء للنيل من سمعتها حتى لا تصبح نموذجاً يقتدى به في السير عكس موجة التبعية، وعلى الرغم من إدراكنا الكامل لتلك الحقيقة إلا أن الكثير منا يقع ضحية تأثير تلك الدعاية بل يتبناها ويروج لها.

إن السقوط كل مرة في هذا الفخ مصدره في الأساس طريقة التفكير التي تعتمد على العاطفة لا العقل وغياب منطق تغليب المصلحة فتتخذ مواقف هي في الأساس ضد مصالحنا ظناً منا أننا نساند الحق في وجه الباطل.

فحين تركز تلك الحملات على دول كالصين وروسيا وفنزويلا وكوريا الديمقراطية، وغيرها من الدول التي تقف في وجه الغطرسة الأمريكية، وجميعها متهمه بالديكتاتورية والقمع، حينها علينا أن نقف ونحكم عقولنا، فما الضرر الذي وقع علينا من سياسات تلك الدول "الديكتاتورية"؟ ألم تدعم قضاياها أكثر مما يفعل حكامنا؟ هل احتلت يوماً أراضيها وشردت شعوبها وقتلت أبناءنا وسرقت مواردها؟ هل وقفت كحجر عثرة أمام تطور مجتمعاتنا؟ هل دعمت حركات متطرفة لإعادة أمتنا عصوراً للوراء؟ هل دمرت أوطاننا باسم "الديمقراطية"؟ وإن كانت الإجابة بـ "لا"، فما الداعي للانسحاق خلف حملات شيطنتهم فيما يخدم مصالح أعدائنا ويضر مصالحنا؟ أفمن العقل أن نساند أطرافاً تدمر أوطاننا ونبنى وجهة نظرها ونروج لها في مقابل تشويه أطراف أخرى تساندنا وتتلاقى مصالحنا معها؟



وقد وصل تأثير تلك الحملات إلى الاحتفاء بشائعة وفاة الرئيس كيم جونج أون رئيس دولة كوريا الديمقراطية الشعبية، وكان كوريا الديمقراطية دولة معادية، أو أن رئيسها هو من أمر باحتلال العراق، أو أعلن أن القدس عاصمة لـ "إسرائيل".. لم يمنح هؤلاء أنفسهم فرصة لإعمال العقل لكي يدركوا أن هذه الدولة التي يشاركون في تشويه سمعتها تقف في خندق واحد مع أمتنا حيث لم تعترف يوماً بالكيان الصهيوني، ولم تقم على أراضيها سفارة له، بل وقدمت مساعدات عسكرية للجيش المصري في حرب أكتوبر/ تشرين 1973 حيث يذكر الفريق سعد الدين الشاذلي رحمه الله في مذكراته حجم تلك المساعدات والتي قدرت بعدد 30 طياراً و 8 موجهين جويين و 5 مترجمين و 3 عناصر للقيادة والسيطرة وطبيباً وطباخاً، وأنها لم تتردد في إرسال تلك المساعدات فور طلبها من جانب الدولة المصرية. ليس لدي أي تفسير لموقف هؤلاء الذين يهاجمون تلك الدولة وسياساتها سوى أنهم واقعون تحت تأثير دعاية تصور لهم أن الشعب الكوري يعيش في جحيم، وأنه من الواجب الدفاع عنهم ضد الأنظمة التي تقمعهم، وفي الحقيقة، أنه وبعملية بحث بسيطة عن مستوى معيشة الفرد في دولة كوريا الديمقراطية الشعبية، سيعرفون أنهم يعيشون في دولة تأخذ على عاتقها توفير كافة الخدمات للمواطن من تعليم وصحة ومسكن وعمل، وتتوافر بها كافة وسائل الترفيه من مساح ودور سينما وأندية رياضية، وأن كل مواطن لديه الحق في التمتع بكل تلك الخدمات من دون تمييز، أما فيما يتعلق بكونها ديمقراطية أو ديمقراطية فهو أمر خاضع لوجهات النظر، فليست الديمقراطية الغربية هي النموذج الذي يصلح لكافة المجتمعات، كما أن تمتع كافة طوائف الشعب بخدمات الدولة من دون تمييز هو قمة الديمقراطية.

أما الصين التي تقف الآن وتساند شعوب العالم في السيطرة على جائحة انتشار فيروس كورونا المستجد - في الوقت الذي تفرض فيه الولايات المتحدة الأمريكية حصاراً مشدداً على دول تعاني من الوباء - الصين التي لم يكن لها أي تاريخ استعماري لأمتنا العربية، ولم تكن يوماً دولة إمبريالية توسعية، فقد تم تصويرها على أنها "الشیطان الأعظم" الذي يبحث عن السيطرة على العالم وإخضاعه، ولا شك في أن جماعات الإسلام السياسي بالتحالف مع الليبراليين الجدد هم رأس حربة تلك الحملة، فقد انتشرت بعض الأفكار بصورة كبيرة على مواقع التواصل الاجتماعي مفادها أن "الصين، في حال سيطرت على العالم، فهي نموذج كارثي لا تمكن مقارنته بالغرب الذي يبحث عن التفوق أكثر من بحثه عن الإخضاع المطلق والكامل غير المشروط، وأن الصين هي الخطر الحقيقي على العالم"! كيف لعاقل أن يقتنع بمثل تلك الخرافات؟ هل الغرب لا يبحث عن الإخضاع بل فقط التفوق؟ فمن الذي احتل أراضينا منذ فجر التاريخ؟ هل الصين هي من قامت بحملات صليبية ضد العرب؟ هل الصين هي من احتلت الأمة العربية ومزقتها وسرقت مواردها؟ ما كل هذا الكم من التزييف الممنهج وكيف يجد من يصدقه سوى أننا اعتدنا على أن نفكر ونتخذ مواقفنا بالعاطفة التي تلغي العقل أو تحيده.

إننا لسنا هنا بصدد الدفاع عن أحد ولكنها محاولة للتخفيف من أثر الدعاية التي لا تصب في النهاية سوى في مصلحة أعدائنا، والتي يقوم البعض بالترويج لها وتبنيها وكأنهم يعملون بأجر لدى البيت الأبيض.

## الأيقونة المنسية: زليخة عدي

عبدالناصر بدروشي

عندما يسمع أحدنا مصطلح "حركات التحرر الوطني" تعود به ذاكرته إلى أحداث القرن العشرين عقب تقسيم الوطن العربي واحتلاله حيث نشأت عدة حركات تحرر عربية ناضلت في سبيل تحرير الوطن والإنسان من الاحتلال، وبعد مرور عقود على تلك الحقبة نشأت أشكال "نضالية" جديدة ذات طابع "حقوقي" و"إنساني" برزت حتى على حساب النضال الحزبي، وتفككت قضية الأمة العامة إلى قضايا فرعية منفصلة، كالدفاع عن حقوق الأقليات وحقوق المرأة والطفل والحيوان والطوائف.

"النضال" من أجل حقوق المرأة والطفل وأصحاب الإعاقة والأقليات الطائفية وفي سبيل حقوق الأقليات بصفة عامة في وطننا العربي هو ضرب للنضال وتفكيك للقضية المركزية، حيث أدت هذه الأشكال "النضالية" إلى مغالطة تلك الأقليات التي باتت تتوهم بأن الأغليات متمتعة بحقوقها على حسابها.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد



الحقيقة التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن العربي الذي يعيش فوق شرادم مزقت من وطنه هو إنسان مسلوب الإرادة وخاضع لقوى الهيمنة الأجنبية ومهدور الكرامة سواء كان هذا العربي رجلاً أم امرأة، سنياً أم شيعياً، مؤمناً أم ملحداً، أسود أم أبيض.. وإن كان لا بد من أن ننظر للمسألة من زاوية الأقليات والأغليات ففي وطني أغلبية مسحوقة من كل الطوائف والألوان يجب أن تواجه أقلية متنفذة تملأ خزائنها على حساب ثروات الأمة، وهي أقلية من كل الطوائف والألوان، ووفق هذا المنظور تصبح الأغلبية المسحوقة مضطهدة من قبل أقلية خائنة وجشعة.

حين يقوم البعض بدفع المرأة العربية إلى الثورة على مجتمعها الذي لم ينصفها حتى تجعل من ذلك أولوية الأولويات فإن هذا التوجه يشوش عليها ويدفعها للتوقف عن مواجهة عدوها الحقيقي.

وحين يقوم بعض أبناء الطوائف برفع راية طائفهم ويسعون للدفاع عن حقوقهم وتكريس خصوصيتهم في وجه الطائفة الأخرى فهم ينشغلون عن عدوهم الحقيقي الذي أشعل الصراعات المذهبية والطائفية لإبقاء العرب بكل طوائفهم منشغلين عنه.

هذا ما أدركته أيقونة ثورة التحرير الجزائرية المناضلة الكبيرة "زليخة عدي" التي ولدت في بيئة عربية ومجتمع عربي قد لا يكون مثالياً، وربما لم تكن راضية عن بعض مظاهر التخلف فيه، إلا أنها علمت أن العائق الذي يقف أمام نهضة الأمة ورفعتها هو الاحتلال، وقد أدركت أن المجتمعات المحتلة والخاضعة لقوى الهيمنة الخارجية لن تقوم لها قائمة حتى تتحرر، فكرست حياتها ونضالها رفة إخوانها الجزائريين، رجالاً ونساءً، شبيهاً وشباباً، في سبيل تحرير الجزائر من الاحتلال.

فمن هي الشهيدة "زليخة عدي"؟

البطلة "يامنة شايب"، أو "زليخة عدي" كما يعرفها الجزائريون، هي التي رمى بها الاحتلال الفرنسي حية من إحدى طائراته، فطارت وحلقت بحرية في سماء الجزائر، ثم عانقت الأرض التي كرسست حياتها في سبيل تحريرها وروتها بدمائها الطاهرة.

ولدت الشهيدة سنة 1911 لعائلة عُرفت بنضالها ضد الاحتلال، وقد ترعرعت في مدينة "شرشال" الساحلية غرب الجزائر، فنشأت في مناخ قادها إلى الكفاح الثوري، فنذرت نفسها للنضال ضد الاحتلال وأعوانه.

لم تمنعها أنوثتها من تولي مهام قيادية غاية في الحساسية، لتقود في شبابها خلايا الدعم اللوجستي لجيش التحرير الوطني الجزائري، فتولت مهمة التنسيق من أجل جمع الأموال وتوفير الأدوية والأطعمة اللازمة للمقاتلين.

ارتابت منها قوات الاحتلال وراقبتها لسنوات، وعبثاً حاولت رصدها أملاً في الإيقاع بها، فقد كانت الشهيدة، التي عرف عنها ذكاؤها وفطنتها، شديدة البراعة وتنقن التخفي، واستطاعت أن تفلت دائماً من بين جنود الاحتلال ومخبريه ولم يتمكنوا من اكتشاف طبيعة عملها ولا المهام التي تقوم بها.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

تولت "زليخة" مهمة قيادة الجيش الجزائري في "شرشال"، بعد أن استشهد القائد أبو القاسم العليوي، الأمر الذي فرض عليها أن تزيد وتيرة تنقلها، فألقي القبض عليها إثر عمليات تمشيط واسعة للفرنسيين في جبال المنطقة.

بعد اعتقالها، قام الفرنسيون بتصوير "زليخة" وهي جالسة على الأرض مقيدة إلى شاحنة، قبل أن يتم سحلها بهذا الوضع في شوارع الجزائر، ثم أخذت البطلة المثخنة بجراحها على متن مروحية فرنسية وألقي بها الفرنسيون من ارتفاع شاهق أملاً في إرهاب المقاومين وإحباطهم ودفعهم للاستسلام وحتى لا تحظى بقبر يخلد ذكراها.

سنة 1984 وبعد 27 عاماً من النحاق الشهيدة يامنة بالرفيق الأعلى واختفاء جثتها طيلة سنوات، تذكر أحد فلاحي المنطقة أنه دفن جثة امرأة عثر عليها مهشمة على قارعة الطريق في شهر أكتوبر من سنة 1957، وبالتنقيب عن رفاتها في المكان الذي دل عليه، تم العثور على بقايا عظامها وبقايا ثوبها الذي أدمت فيه.

عاشت "زليخة" أطول من أعمار جلاذيتها ونحن اليوم نذكرها ولا نعرف أسماء من قاموا بتعذيبها، فاستحقت لقب أيقونة ثورة التحرير الجزائرية بحق، وكانت مثلاً لحرائر الأمة العربية ونساءها الشامخات.

لم تأخذ "زليخة عدي" حظها من الدعاية فكانت أيقونة منسية، فكان لزاماً علينا أن ندرس سيرتها وسير كل الشهداء لبناتنا وأبنائنا حتى يكونوا قدوة لهم ومنارة.

هكذا يكون النضال أو لا يكون، إذ أننا ما نزال اليوم بحاجة لميلاد حركة تحرر قومي، فأمتنا العربية ما تزال مقسمة ومحتملة، حتى وإن اتخذ ذلك الاحتلال أشكالاً جديدة "ناعمة" غير مباشرة أحياناً.

عاشت "زليخة عدي" وشهداء أمتنا العربية.. والموت للاحتلال وأعوانه.

## من أين أتت الكتابة العربية؟

ملخص تاريخ الخطوط والكتابة العربية: من الأنباط إلى بدايات الإسلام- تأليف بياترس جرنندر\*

فارس سعادة

يناقش الكتاب تاريخ أصول ومصادر الخطوط والكتابة العربية من خلال دراسة النقوش والكتابات النبطية والعربية ما قبل الإسلام، في إطار زمني يمتد من القرن الرابع قبل الميلاد وصولاً إلى القرنين الثامن والتاسع ميلادي. توضح المؤلف في الفصل الأول من الكتاب ارتباط الحروف العربية وتطورها عن الحروف النبطية بشكل خاص، لا غيرها من الحروف الفينيقية، وتحديد السريانية منها، وذلك عبر دراسة وتحليل مئات النقوش والكتابات النبطية والعربية ما قبل الإسلام من فترات مختلفة، أظهرت من خلالها مراحل تطور الحروف العربية بشكل أساسي ومباشر من الحروف النبطية بشكل منهجي رصين، والتي تندرج تحت عائلة الخطوط الفينيقية/الآرامية وفقاً للباحثين.

استخدمت المؤلف نظريات مختلفة لإثبات الأصل النبطي للحرف العربي، أهمها نظرية ثيودور نولدكه، الذي أعاد أصول الخط الكوفي إلى النبطية، ومن ثم دعمت حججه بأثلة مختلفة ومقارنات عديدة، كان أهمها ردود جروهمان على نظرية ستارك، التي ردت فيها الحرف العربي إلى الخط النسخي السرياني. فقام جروهمان بمقارنة أشكال تطور الحروف العربية ومقارنتها بالحروف النبطية خلال فترات زمنية مختلفة، وذلك من خلال تقديم بعض النقوش العربية ما قبل الإسلام لثُمَّل مرحلة انتقالية واضحة مزجت بين الأشكال العربية والنبطية للحروف.

تؤكد المؤلف على أن أشكال الحروف المستقلة، أي المفردة، هي الأساس في كشف أصول تطور الخطوط العربية، وتقلل من أهمية توزيع الحروف المكاني واصطفافها في الكلمات، إذ إن تحليل المصادر الكتابية المؤرخة أثرياً في الكتاب تظهر الكيفية التي تطور فيها الخط العربي خلال مراحلها المختلفة.



فالخط النبطي على اختلافه، وفقاً للمؤلفة، ساهم في تشكيل الحروف العربية خلال حوالي أربعين عاماً متتالاً على الأقل، أي أنها كانت عملية تطويرية طويلة زمنياً.

تتبع المؤلف النمو التدريجي للخط العربي من الفترة الأرامية المتأخرة المستخدمة من قبل العرب الأنباط، إلى المرحلة الأولى للعربية المبكرة، قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، وأوضحت الاستخدامات المختلفة للخط من خلال التفريق بين أسلوب الكتابة (التذكاري أو النسخي) والمادة التي يتم الكتابة عليها (حجر، بُردى، قماش)، والكيفية التي تم فيها تحويل الحروف النبطية أو بعضها لتصبح حروفاً عربية ذات انحناءات مختلفة، إضافة إلى التطور الذي حصل لهذه الحروف بحسب اختلاف موقعها في الكلمة (أولي، وسطي، نهائي).

كما عززت المؤلف كتابها بجداول زمنية مختلفة لفحص وتحليل تطور الخط العربي من الخطوط النبطية، وقد قامت بتحليل المصادر الأساسية للخط العربي التي تعكسها النقوش المؤرخة. وقدمت نصوصاً نبطية منتخبة وكاملة، مما ساهم في عملية تتبع تطور الخط العربي حتى ظهور الإسلام، وساهم أيضاً في توضيح عملية تطوير الكتابة وتنميتها، إلى أن أصبحت، وفقاً للكاتبة، نسقاً منسجماً ومتكاملاً.

عملية تأريخ تطور الخط العربي من خلال المادة الأثرية (النقوش والكتابات) استندت بشكل رئيسي إلى مصدرين أساسيين، الأول: النقوش والنصوص النبطية التي عُثر عليها في مناطق الأردن وسيناء وبادية الشام وشمال الجزيرة العربية، وقد أظهرت تلك الكتابات، وبحسب تسلسلها الزمني، العملية التطورية والانتقالية من الخط النبطي إلى الخط العربي، ولعل أوضح مثال على ذلك هو نقش النمارة باللغة العربية، المؤرخ بعام 382 ميلادية، والذي أظهر وفقاً للمؤلفة "خطاً نبطياً منتظماً" (ص، 23)، والثاني تمثل بالنقوش العربية ما قبل الإسلام وخلال الفترات الإسلامية المختلفة. وبالرغم من قلة النصوص العربية ما قبل الإسلام، فإنها تعرض لنا بعض مراحل تطور الخط العربي منذ القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادي، إذ ترى الكاتبة، أن الخط العربي لم يصبح منتظماً ونمطياً ومتجانساً إلا في فترة الحكم الأموي، وتحديدًا عند المنتصف الأول من القرن الثامن الميلادي.

تؤكد الكاتبة بأن القرن الأول الهجري أظهر بشكل كامل تبلور الخط العربي بشكله الذي نعرفه الآن بعيد ظهور التنقيط وبداية تميز الخطوط العربية المبكرة، فبرأيها كانت تلك الفترة كافية لإظهار وتتبع استمرارية التطور من النبطية إلى العربية.

يمثل الكتاب تفصيلاً متكاملاً لتطور الحروف العربية عبر الخطوط النبطية المختلفة، وتحديدًا الخط النسخي، إذ إن المؤلف تُفرد فصل الكتاب الثالث لتفصيل عملية تطور الحروف العربية، والكيفية التي تطورت فيها عملية رسمها وانتقالها من شكل إلى آخر والاختلافات التي أظهرتها النقوش والكتابات بحسب المادة التي تمت الكتابة عليها أو بحسب وظيفة النقش أو الكتابة. ومن ثم تقارن بين الحروف النبطية والعربية والمراحل التي مرت بها هذه الحروف عبر فترات متلاحقة، وذلك من نواح مختلفة أهمها درجة اندماج الحروف من ناحية رسم الحرف والحركات والارتباط مع أحرف أخرى كحرف اللام الألف، ومواقع الحروف في الكلمة مقارنةً بالحروف الأخرى.

في فصلي الكتاب الرابع والخامس تناقش المؤلف قرب الخط النسخي النبطي من الخط العربي، وتطرح وجهة نظرها في تطور العربية، وتناقش عملية تبسيط الحروف العربية وتنميتها لكي تصبح أسهل للاستخدام بحسب وظائف الكتابة



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

المختلفة، وتطور العلامات الصوتية للحروف العربية وتجانسها رسماً مع الحروف بحسب كل حرف بشكل منفرد، كما تقارب بين كل حرف عربي والحروف النبطية بحسب رسمها.

تؤكد المؤلفة على أهمية الخط العربي في تشكل الثقافة العربية الإسلامية، وتدلل على ذلك بكثرة استخدام الحروف العربية وتنوع المواد المستخدمة للكتابة من الحجارة وورق البُردي والزجاج والقماش وصولاً إلى الفسيفساء والطين... إلخ، وتؤكد بأن ظهور المخطوطات العربية خلال القرن الثامن الميلادي ساهم في تطور أنواع مختلفة من الخطوط العربية الحديثة، وترتبط تطور الخطوط بعد الإسلام بتعدد وظائف الكتابة آنذاك. كما تشير الكاتبة إلى أهمية دور القرآن الكريم في عملية تطوير الخطوط العربية وتجميلها وإيضاحها شكلاً ومضموناً.

استطاعت المؤلفة من خلال طريقة عرضه للتسلسل الزمني لتطور الحروف العربية، وعبر أدواتها المنهجية اللغوية والتحليلية والنقدية، أن توصل السردية التاريخية الكاملة لتطور الكتابة العربية «الخط العربي» وكيفية اشتقاقها وولادتها من الخطوط النبطية القديمة، وهذا ما ساهم في معرفة وتحديد تأريخ الحروف العربية الأصلية زمنياً ومكانياً.

\* Grundler, Beatrice, (1993), *The Development of the Arabic Scripts: From the Nabatean Era to the First Islamic Century*. Harvard Semitic Studies 43, Atlanta: Scholars Press.

## ياسين الحافظ وكتابه "في المسألة القومية الديمقراطية": مقدمة لمراجعة نقدية

إبراهيم علوش

كتاب المفكر القومي اليساري ياسين الحافظ (1930 – 1978) "في المسألة القومية الديمقراطية"، آخر كتبه، ليس من النصوص التي يطير القارئ عبرها بسرعة لمن يسعى لاستنتاج كنهها حقاً، لأنه قراءة مكثفة للواقع العربي، ينقد فيها التيارات السائدة، القومية التقليدية، واليسارية التقليدية وغير التقليدية، من منظور واقعي، ولكنه ليس منظوراً يستسلم أمام ذلك الواقع، بل يراه ويعاينه بكل تفاصيله المملة أو البشعة، الظاهرة أو الخفية، بنية تشريحه ووضع دليل عمل لتغييره، لا بنية الاستسلام له، فهو كتاب في نقد الواقع العربي، واقع التجزئة، وواقع الفكر والممارسة القوميين، بمقدار ما يؤسس لمنظور قومي يساري مجدد في تغييره، ولذلك فإن ذلك الكتاب يظل راهناً ومعاصراً بعد أكثر من 40 عاماً من نشره.

ياسين الحافظ من القطر العربي السوري، من دير الزور تحديداً، أي أنه بدأ من البادية فعلياً وانتقل إلى دمشق، ثم إلى لبنان، مع فترة في باريس، وتوفي في لبنان عام 1978، وقد تميز فكره بالحيوية والقدرة على التجاوز والارتقاء، تجاوز وعيه وذاته، وتجاوز الواقع الذي ترعرع فيه، وتجاوز القشرة الخارجية للواقع العربي للإمساك بالعلاقات الداخلية التي تحكم قوانين حركته الداخلية، لذلك أنتج الحافظ رؤى عمل على صياغتها في توليفة محكمة قومية عربية وماركسية غير تقليدية، مشبعة بتقليد عصر الأنوار الأوروبي في أن معاً.

لم يكن ياسين الحافظ، بالرغم من كل إسهاماته النظرية القيمة والخلافية أحياناً، ممن يقتصرون على التنظير، مهما بلغت أهمية التنظير والوعي (الذي اعتبره الحافظ المفتاح الأهم) في العمل القومي، فقد كان مناضلاً عملياً منذ نعومة الأظفار، إذ تطوع للقتال في حرب فلسطين عام 1948، وخاض التجربة الحزبية في سياقات مختلفة، بعثية وشيوعية، وأسس "حزب العمال الثوري العربي"، وعاش تجربة السجن لمدة ستة أشهر عام 1968 في زنزانة مجاورة لزنزانة جورج حبش في سورية في ظل نظام صلاح الجديد، أي أنه من فئة المفكرين الذين لم يقتصروا على النشاط الفكري المجرد، على أهميته، ولا حتى على الموقف السياسي المنتمي للأمة والمنحاز إليها، على أهميته، بل زواج الحافظ ما بين النظرية والممارسة، فطبق الأولى ونظر الثانية، لذلك جاءت كتبه قراءة أو تجريداً للواقع أكثر منها قراءة للنظرية، وجاء نقده للنظريات المتداولة عربياً واقعياً أو تاريخياً، لا تجريبياً أو منطقياً فحسب، ومن هنا أهمية ياسين الحافظ وراهنيته اليوم.

لا بد من الإشارة هنا بالضرورة إلى أن محاولة البعض تجيير ياسين الحافظ وإرثه النضالي والفكري الثري فيما يسمى "الثورة السورية" عام 2011، بذريعة عناية ياسين الحافظ بمسألة الديمقراطية في الفكر القومي، هي محاولة



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد



فاشلة وانتهازية في أحسن الأحوال، لأن ياسين الحافظ كان، قبل كل شيء، قومياً تطهيرياً، وكان موقفه من الإمبريالية والرجعية العربية حاسماً لا خطل فيه، ناهيك عن «ثورة» مدعومة من قبل الإمبريالية والرجعية العربية والعدو الصهيوني وتركيا التي اتخذ منها موقفاً حاسماً.

وإذا كان الحافظ قد اتخذ موقفاً ضد وحدة سورية مع العراق الهاشمي بسبب تعاون الثورة العربية الكبرى مع البريطانيين وتبعية العراق الملكي لبريطانيا، مفضلاً وحدة سورية مع مصر، في سياق مواجهة مصر عبدالناصر لحلف بغداد الذي كانت تنصده بريطانيا، فكيف يمكن أن يقف ياسين الحافظ، أو من يتمثل موقفه جيداً، مع ثورة مضادة تشكل غرفة «الموك» إحدى محركاتها؟ كذلك سنرى لاحقاً أن ياسين الحافظ أيد عام 1976 موقف الدولة السورية في لبنان، وأنه شكك في صحة الموقف السياسي لكamal جنبلاط آنذاك في صفحات طويلة، بغض النظر عما إذا إن كان قارئ هذا السطور يؤيد مثل ذلك الموقف أم لا..

عندما نقول عن فكر الحافظ أنه «مجدد»، ينسحب ذلك أيضاً على بعض صياغات ياسين الحافظ اللغوية غير المألوفة، وبعض مفرداته الغريبة أحياناً، أما تراصف أفكاره فمنهجية ومنظمة بشكل غير مألوف في الفكر العربي المعاصر، وهو يلج إلى العمق، ويغوص فيه مطولاً كمفكر متمكن، ليعيد إنتاجه كرافعة فكرية متقنة لمشروع وحدوي يراه الحافظ راهناً دوماً، وهو ينتج على هامش ذلك المجهود الفكري العملاق أدباً سياسياً رفيعاً تتذوقه بمقدار ما يستفزك لتفكر ويتحداك لتعمل، فالأساس عنده هو شحذ إرادة الوحدة وعاطفتها على برودة العقل النقدي التحليلي، ولذلك جاء ما أنتجه الحافظ في «في المسألة القومية الديمقراطية» قمة من قمم الفكر الوحدوي العربي، سواء اتفق المرء مع كل استنتاجاته فيه أم لم يتفق، وليس التناطبق بنسبة 100% شرطاً لتقدير فكر ياسين الحافظ حق قدره بجميع الأحوال، أو للاستفادة منه، وليس عدم التناطبق الكامل داعياً للامتناع عن تقديم «في المسألة القومية الديمقراطية» ك«مداخلة نظرية» مهمة ومتميزة حقاً، تستحق التأمل ملياً فيما ورد فيها على الأقل، وتتطلب من القوميين تحديد موقف منها.

وحيث أنه توجد طبعات مختلفة من كتاب «في المسألة القومية الديمقراطية» في الفضاءين الحقيقي والافتراضي، ومنعاً للنشوش حول أرقام الصفحات التي أفتطف منها أو أشير إليها أدناه، فإن النسخة التي أعتمدها في الحديث هنا عن كتاب «في المسألة القومية الديمقراطية» هي النسخة التي يمكن تحميلها على هذا الرابط، وهي تتألف من 231 صفحة:

<https://docs.google.com/file/d/0B1hVHp4YpIKoUzNNRDgyUE9sbIE/edit>

الجزء التنظيري (تنظيري، من عملية أو تمرين بناء نظرية لتفسير الواقع منهجياً، لأنني اكتشفت مما يقوله البعض أن «نظري» فحسب تعني عندهم «حشو» و«كلام» و«حفظ»!) الأهم من الكتاب، برأيي المتواضع، هو جزؤه الأول، وهو يبدأ بالفصل المعنون «نحو منظورات وحدوية جديدة»، الفصل الأكثر عمقاً وتجريداً الذي يشدك إليه ويفرض عليك القراءة بتؤدة وإمعان في أن، وهو يمتد من البداية، بعد مقدمة شريكه المفكر إلياس مرقص، حتى الصفحة 74. أما الفصلان اللذان يليان ذلك الفصل، وهما «حول تجربة الوحدة المصرية-السورية»، و«تطور وعي عبدالناصر الوحدوي»، فهما أقرب لتمرين تطبيقية، على صعيد ممارسة العملية الوحدوية ثم تطور الوعي الوحدوي ذاته، للمنهج الفكري الذي تم التأسيس له في الفصل الأول، وهما فصلان لا يخلوان من إضافات نظرية بدورهما، لكنهما يتميزان، فضلاً عن ذلك، بتوظيف التاريخ أو السيرورة التاريخية كأداة تحليل بكثافة أكبر، أي بمنهج «تاريخاني» قياسي، إذا صح التعبير، يميز رؤية ياسين الحافظ عامة.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد



يتوسع ياسين الحافظ بعد ذلك في المسألة الطائفية والحرب الأهلية في لبنان في سبعينيات القرن العشرين في عدة فصول (ص: 141-209)، أرى أن الحافظ غاص فيها بتفاصيل تمس الشأن المحلي اللبناني قد تجذب المعنيين فيه أكثر بكثير من الجمهور العربي العام، سوى أنه يُبرز فيها، من خلال مناقشة حالة لبنان الماثلة عيانياً، أولوية الطرح العلماني كمرتكز أساسي لمنهجه القومي، منتقداً القوى الوطنية والقومية واليسارية في لبنان (باستثناء الحزب السوري القومي الاجتماعي) على عدم إعطاء البرنامج العلماني أولوية أولى في الساحة اللبنانية، ليحاكمها علمانياً بقسوة، وهو توجه يحتاج لمناقشة نقدية بالنسبة لوجهة تعميمه على ظروف الوطن العربي ككل بالتساوي، من المغرب العربي إلى شبه الجزيرة العربية، بما أننا نتحدث عن مشروع قومي، لكن من التعسف القول أيضاً إن الرؤيا العلمانية تختزل سبعين صفحة خصصها ياسين الحافظ للشأن اللبناني في كتابه، إذ أنه كان قبل كل شيء قومياً عربياً، وهو مزيج قومي-علماني ربما يستغرب منه بعض القوميين العرب في المغرب العربي الكبير مثلاً، إذ أن العلمانية لطالما اقترنت هناك بمعاداة العروبة، وبالتغريب، أي بالانسلاخ، وبموالاة الاستعمار الغربي، على العكس من الحركة القومية العربية

في المشرق العربي التي تبلورت في مواجهة احتلال عثماني ووجدت نفسها في بلاد الشام بالذات أمام مجتمع متنوع دينياً وطائفيًا، وبالتالي كثيراً ما وجدت بالعلمانية جسراً لتحقيق المواطنة والوحدة القومية.

تحتل تفاصيل البعد السياسي الراهن (آنذاك) في فصول "في المسألة القومية الديمقراطية" التي تتناول الشأن اللبناني في السبعينيات نسبة أعلى بكثير من فصول الكتاب الأخرى، باستثناء استنتاجات الحافظ النظرية حولها في الفصل المعنون "أطروحات حول مسألة الأقليات في لبنان"، ويمكن اعتبار ذلك الفصل، والفصل الذي يليه، "ملاحظات حول المسألة الطائفية في مصر"، والفصل الذي يليهما تحت عنوان "الماركسية والأيدولوجيا الدينية العربية"، جنوحاً علمانياً يتبلور تدريجياً عند الحافظ بشكل أكثر فأكثر وضوحاً وتطرفاً، قياساً على نموذج حدثي أوروبي لتحقيق النهضة يراه الحافظ مستقبلاً للوطن العربي، لينتقل تدريجياً من أطروحة حل مشكلة الأقليات حلاً ديمقراطياً علمانياً، في إطار قومي وحدوي، إلى ضرورة نقد التدين في المجتمع العربي في ذلك الفصل (ص: 218-223-)، لا سيما ما يسميه الأيدولوجيا الإسلامية، من دون أن يغلق الطريق على إمكانية تحديث الأيدولوجيا الإسلامية وعقلنتها، أسوة بما جرى في أوروبا، ومن دون أن يتبنى تلك الطريق لتحديثها وعقلنتها كما فعل محمد عابد الجابري مثلاً (ص: 223).

وإذا كان ياسين الحافظ، أسوة بكثيرين، قد عد الحركة الوهابية في انطلاقتها الأولى (ضد العثمانيين، ومع الإسلام العربي) "حركة إصلاحية"، فإنه أسقطها من حسابه فوراً بجملة واحدة لأنها خلت برأيه من كل تأثير "براني" وحديث، ولأنها انحصرت "في القسم الأكثر تأخرًا من الشعب العربي، القسم شبه البدوي: نجد أولاً، ثم مع امتداد سلطان العائلة السعودية، الحجاز" (ص: 222)، ليعود للإشارة في الفقرة التي تليها مباشرة إلى أن حركة محمد عبده في مصر كانت "محاولة لمصالحة العصر لا الهرب منه، كما فعلت الوهابية" (ص: 222). ويضيف ياسين الحافظ: "إن مأساة الأيدولوجية الإسلامية تتمثل في أنها تواجه عالماً لم يعد عالمها... ويشعر معظم ممثليها أن إعادة تفصيلها على قد الواقع إنما هي نهايتها، لذلك يعملون على قسر الواقع وتفصيله على قدها" (ص: 223)، فأى وصف يليق بالوهابية المعاصرة وتفرعاتها أكثر من هذا؟

يختتم الحافظ كتابه، في الفصل المعنون "اللغة العربية والتقدم العربي"، بدعوة حدثية تشكل جزءاً لا يتجزأ من منهج ياسين الحافظ الفكري عموماً، الذي يتخذ من نقد "التأخر العربي"، مقارنة بمقياس أوروبا الغربية، منطلقاً لتحليل التجزئة والتبعية، ومن هنا يدعو لتطوير اللغة العربية ذاتها وتبسيطها (لا تطوير أساليب تدريسها فحسب)، بما يتيح إزالة الفجوات بين العاميات العربية والفصحى من جهة، والفجوات بين متطلبات العصر التكنولوجية وتراث الجاهلية



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

اللغوي من جهة أخرى، كشرط لا مندوحة عنه، برأي الحافظ، لا لتحقيق المشروع النهضوي العربي فحسب، بل كمنظور لا بد للتيار القومي العروبي من تبنيه ليثبت جدارته الحدائثة لقيادة مشروع وحدوي حقيقي، وهي رؤية إشكالية وسابقة لأوانها بكثير، برأي المتواضع، وتتطلب الحذر في كيفية طرحها وتنفيذها، كما تتطلب جهة مؤتمنة على المصلحة القومية العليا للقيام عليها، مثل دولة وحدة قومية مركزية قوية، أو حركة قومية عروبية وازنة وعابرة لحدود التجزئة القطرية، لا سيما في مواجهتنا الراهنة مع مشروع تفكيك الهوية العربية الذي يشكل الهجوم على اللغة العربية أحد أعمده الأساسية، من دون أن يعني ذلك أن الحافظ لا يمسك بمشكلة حقيقية تتعلق بالفجوة بين العاميات والفصحى، وبين القلوب القديمة ومتطلبات العصر، لا بد من إيجاد منظور عقلاني معاصر، وقومي عروبي في آنٍ معاً، لحلها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الحافظ يوجّه، من موقعه القومي العروبي دوماً، نقداً لاذعاً لدعاة الإقليمية، أو لنزعات شرعية التجزئة والمنظومة القطرية باية ذريعة، لا سيما دعاة "القومية" القائمة على أساس فطري، وهو يذكر بعض ممثلي تلك النزعة بالاسم، مثل أحمد لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى في مصر (ص. 118)، ولطفي السيد بالمناسبة أبو الليبرالية، وسلامة موسى أبو الاشتراكية في مصر، وهما من دعاة الكتابة بالعامية المصرية بدل العربية الفصحى، أما طه حسين فمن دعاة تبسيط الفصحى؛ كذلك يذكر ياسين الحافظ بعض دعاة "القومية اللبنانية" بالاسم، مثل شارل مالك وكمال الحاج وسعيد عقل وكمال صليبي (ص. 146) في السياق ذاته.

أشير على الهامش، وخارج السياق، إلى أنني لم أكن قد انتبهت على ما يبدو، في قراءاتي السابقة لكتاب "في المسألة القومية الديموقراطية"، لورود اسم كمال الصليبي في القائمة، وهو صاحب كتاب "التوراة جاءت من جزيرة العرب" وغيره، الذي تتلمذ في جامعة لندن على يد المستشرق الكبير برنار لويس إياه، داعية تفكيك المنطقة. وكان كمال الصليبي أيام ياسين الحافظ أيقونة من أيقونات "القومية اللبنانية"، قبل أن يتحول ويتبدل، بشكل كلي كما يرى البعض، وبشكل جزئي كما يرى آخرون مثل أسعد أبو خليل في "الأخبار" اللبنانية في 10/9/2011، الذي أشار، بمناسبة رحيل الصليبي وقتها، إلى أن مقدمة كتاب الصليبي "تاريخ لبنان الحديث" (1965) تقول إن ذلك الكتاب صدر بتوصية مباشرة من أستاذه المستشرق الصهيوني برنار لويس، في عز فترة المد القومي، ولكن ذلك خارج نطاق هذه المعالجة المتعلقة بياسين الحافظ، سوى للإيضاح لم أدرج الحافظ كاتباً يحترمه كثيرون في الصف الوطني والقومي، مثل كمال الصليبي، في عداد دعاة "القومية اللبنانية" الكبار، وكان الصليبي رئيساً لدائرة التاريخ والآثار في الجامعة الأمريكية في بيروت، قبل أن يتقاعد وينتقل إلى عمان، الأردن، ليؤسس "المعهد الملكي للدراسات الدينية" عام 1994.

بالعودة لياسين الحافظ نقول إن علمانيته المتشددة سياسياً، وبوصلته الحدائثة الصارمة تاريخياً، لا يجوز أن تدفع بعض الذين قد يتحسسون منهما إلى تجاوز إسهامات ياسين الحافظ النوعية كمفكر قومي عروبي تصدى للأسئلة الصعبة في المشروع الوحدوي في مرحلة الجزر القومي التي ازدادت جزراً في أيامنا هذه، وبالتالي زادت من أهمية وراهنية ما تطرق إليه. كما أن دعوة الحافظ كمفكر قومي عربي لتجديد اللغة العربية وتبسيطها، إذا كانت تصدم بعض القوميين العرب المعتزين بلغتنا العربية، فلسوف يصدّمهم أكثر من قبل، خلال قراءة "في المسألة القومية الديموقراطية" قبل الوصول لذلك الفصل، مدى امتلاكه لخاصية اللغة العربية ولشواردها، ومدى قدرته على تطوير صياغاتها وعلى فصحة عاميتها، بناءً على قواعدها ذاتها، لإنتاج قالب لغوي مجدد "مطابق" لمحتواه الفكري المجدد، أي أن الحافظ لا يدعو للتجديد اللغوي عن عجز أو تلعلة.

ولسوف نعود لاحقاً لمفهوم "المطابقة"، الذي طبقه ياسين الحافظ منهجياً في أكثر من سياق في كتابه، إنما لا بد أولاً من سياقة مثال على لغويات الحافظ فيما قاله مثلاً عن "الاتحاد الهاشمي" بين العراق والأردن الملكيين، رداً على وحدة عام 1958 بين مصر وسورية: "هذا الاتحاد لم يكن فقط اتحاداً كهأكه" (ص. 88)...

أذكر في إحدى الحلقات القومية عام 2006 أن مجموعة من الشباب القومي كانت تناقش "في المسألة القومية الديموقراطية"، ولم تكن المعاجم اللغوية محملة على الإنترنت وقتها، ولا أجهزة الهاتف النقال متصلة بالإنترنت، فاحترنا، وقال أحدنا إنه خطأ مطبعي بالتأكيد، ولكن ياسين الحافظ كررها في موضع آخر في الصفحة ذاتها: "هذا الاتحاد الكهأكه.."، ولم تكن الكلمة مشكّلة بالفتح أو الضم أو الكسر في الكتاب، وقد تبين أنها وردت في لسان العرب وغيره من المعاجم بمعنى "رجلٌ كهأكه: الذي تراه كأنه يضحك، وهو ليس بضحك"... ولنا أن نستنتج المعنى السياسي ببساطة لو وضعنا كلمة "اتحاد" مكان "رجل".. فهو اتحاد كهأكه! إذ لماذا لم يرق مثل ذلك الاتحاد على مدى 25 عاماً من وجود المملكتين، كما قال الحافظ، قبل الوحدة المصرية-السورية عام 1958!؟



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

## الرئيسان القومي وعبد الناصر يعلنان اتحاد مصر وسوريا

# الجمهورية العربية المتحدة

### الدولة الجديدة مستعدة للوحدة أو الاتحاد مع أي بلد عربي



تتناثر أمثلة عديدة على صياغات الحافظ اللغوية المجددة، لكن ليس إلى حد استعصاء النص على الفهم، فقرأه مرةً يستخدم الفعل المضارع الذاتي (reflexive) "يتبينن"، أي يتشكل في بنیان، وتراه مرةً يقول: "مثل هذا التصور الخروفي للوحدة العربية" (من خروف)، عند حديثه عن تصور الوحدة كنتاج تلقائي لتطور عفوي اقتصادي أو تدريجي، لا يبري الحافظ في الحالتين أساساً لهما في الواقع العربي، وكثيراً ما تحدث الحافظ عن مناخ "الاستنقاع الإقليمي"، من كلمة "مستقع" في وصفه لمناخ الولوع في مستنقع "الوعي" والسياسات القطرية، وثمة مفردات وصياغات عديدة غيرها لمن يقرأ النص، لكن لن نطيل في هذا الجانب لأن موضوعنا الرئيسي في هذه المعالجة هو فكر الحافظ القومي المجدد، لا لغوياته، لولا أن بعض المواد على الإنترنت تزعم أن مفاهيم الحافظ السياسية مبهمة، ولا نراها كذلك إلا على من كان أسير القوالب الجامدة، في الفكر وفي اللغة، أو بالأحرى في فكر اللغة، لا في لغة الفكر فحسب.

لست بمعرض تلخيص "في المسألة القومية الديمقراطية" وكل ما ورد فيه، أولاً، لأن تلخيص أجزائه النظرية وحدها استغرق مني مثلاً 28 صفحة مطبوعة، فهو كئيف إلى درجة تجعل التلخيص القصير والسريع يُفقد لجج "المسألة القومية الديمقراطية" عند الحافظ عمقها ومداهها، وثانياً، لأن التلخيص وحده، بسبب ما سبق، ربما يُشعر بعض من يقرأونه بامتلاءٍ مزيفٍ بالفحوى، فيثنيهم عن تحدي قراءة الكتاب، لا سيما الـ140 صفحة الأولى منه، التي أقترحها كقراءة ضرورية لكل قومي عربي.

إن أهم ما في كتاب "في المسألة القومية الديمقراطية" هو واقعيته، وقد تجلّى ذلك منذ صفحاته الأولى بمناقشة عقلانية للوحدة العربية كمصلحة استراتيجية راهنة، من منظور الأمن القومي والتقدم العربي اللذين لا يمكن أن يتحققا إلا في إطار وحدات كبيرة، لا من منظور قومي تقليدي اعتبر أن وحدة الأمة تحصيل حاصل لحقيقة الوجود القومي فحسب، وإذا كان ياسين الحافظ قد اعتبر القوى الإقليمية المجاورة مثل تركيا وإيران (في زمن الشاه) والحبشة، وأوروبا بالنسبة للمغرب العربي، عائقاً كبيراً أمام المشروع الوحدوي، إلى جانب الإمبريالية الأمريكية والعدو الصهيوني، فإن الدور التركي، مع أنه لم يكن بذات وزن الدور الإيراني أيام الشاه، احتل مساحةً واسعة في خطاب ياسين الحافظ (كما نرى في الصفحات 16 و31 و37 و81 و87 مثلاً)، ناهيك عن ثقل الوزن التركي، إلى جانب الصهيوني، والتأمر الغربي، في دفع سورية إلى الوحدة مع مصر عام 1958، ونلفت بالأخص لما قاله ياسين الحافظ عن اقتراح موشي دايان، بدعم من بن غوريون، لمواجهة الوحدة المصرية-السورية بإقامة أحلاف مع الدول المحيطة بالوطن العربي، وتحديد إقامة حلف يضم الكيان الصهيوني وتركيا والحبشة (ص. 87).

ثم إن واقعية الحافظ دفعته لمعاينة التفاوت بين أقطار الوطن العربي بإمعان، من حيث حجمها ووزنها وعراقتها ومستوى تطورها واندماجها الداخلي، فلم يحاول أن يخفي تأثير ذلك كله على بروز نزعات إقليمية أو قطرية تحت سجادة الخطاب القومي الوحدوي الفخمة، بل سعى إلى مواجهته مباشرةً ومناقشة كيفية التعامل معه لكي لا يكون عائقاً في وجه العملية الوحدوية، ولتحويله إلى عامل من عوامل الغنى والتنوع الاجتماعي والثقافي في الوطن العربي ضمن إطار الوحدة، بدلاً من أن يكون عاملاً من عوامل تغذية الإقليمية والحس القطري، ومشكلة الرومانسية الوحدوية برأيه هو أنها اكتفت بإدانة التجزئة، من دون تحليل تضاريسها، والعوامل التي تساعدها على استمرارها ذاتياً، وقد طرح ياسين الحافظ رؤى محددة لاحتواء النزعات الإقليمية في كتابه.

كذلك تتجلى واقعية الحافظ عند مناقشة الحساسيات الطائفية في بلاد الشام ومصر على سبيل المثال، إذ لم يتورع عن



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

تسمية الأشياء بأسمائها، من دون رتوش، وبما يتجاوز الخطاب القومي "الصحيح سياسياً"، فهو يقول مثلاً: "أن للحركة القومية العربية أن تولي مسألة الأقليات العناية التي تستحقها، وبخاصة موقف المواطنين العرب المسيحيين وغير السنة من المسلمين، والتأكيد على علمانية الحركة القومية العربية ودولة الوحدة هو مفتاح حل هذه المشكلة" (ص. 40).

أما الأقليات غير العربية، فيرى ياسين الحافظ أن الحل هو الاندماج، وهو الحل الذي تسهل تحققة عملية ديمقراطية المجتمع العربي، لكن إلى أن يتم ذلك، يجب أن تؤخذ كل حالة على حدة، بمنح تلك الأقليات، تبعاً لشروط كل حالة، إما الحكم الذاتي، أو ما هو أكثر من ذلك، أو حتى حق الانفصال، فهذه الأقليات تلعب دوراً، حاسماً أحياناً، ضد الوحدة العربية (ص. 40)، وهو ما لا أتفق مع ياسين الحافظ فيه، لأنه يفتح باب التفكيك على مصراعيه، لأن مسألة "الأقليات غير العربية" باتت حدودها غائمة لا سيما مع إصرار البعض على اعتبار الكثير من الأقوام العربية القديمة مثل السريان والبربر "غير عرب". لكن ما لا يمكن الشك فيه هو أن ياسين الحافظ دفع بالمقاربة الديمقراطية (والعلمانية) للفكر القومي إلى حدها الأقصى، وهو يرى أن المثقف أو الطليعي الأثريوي يجب أن ينادي بالديموقراطية، والمواطنة المتساوية، والمثقف أو الطليعي الأثريوي يجب أن ينادي بالاندماج (ص. 209).

ومع تفضيله للديموقراطية، فإن ياسين الحافظ لم يرفض إمكانية الوصول للوحدة عن طريق "بروسي"، أي بالقوة، على طريقة بروسيا في ألمانيا، لو كان ذلك ممكناً، وهو يؤكد على الأهمية التاريخية والعملية في تحقيق العملية الوحدوية للدولة-المركز، أو ما يسميه "الكتلة المكوّرة"، وهي من صياغاته المجددة أيضاً، أي الكتلة التي تتجمع حولها بقية الأقطار كالكرة (ص. 50)، ومع ذلك فإنه يرى أن الدول العربية المؤهلة للعب مثل هذا الدور تحجم عن القيام به للأسف، أساساً بسبب عدم وجود "وعي مطابق" لديها، ووعي مطابق لمصلحتها كقطر، ولمصلحة الأمة التي تنتمي إليها (ص. 53).

يرى الحافظ بأن عوامل الوحدة تصطرع بحدّة مع عوامل التجزئة في الوطن العربي، وأن النتيجة ليست محسومة مسبقاً كما يفترض القوميون التقليديون بفعل توفر عوامل تشكل الأمة كاملة لدى الأمة العربية، بل هي رهن بتوفر "وعي مطابق" لدى الشعب العربي، أو طلائعه إذا نشأت، هي مرتبة من الوعي يتطابق فيها ووعيهم مع حاجات التقدم العربي، ستغدو السيرة الوحدوية معها أسهل وأقصر، وتتحول الوحدة إلى حتمية بقدر تنامي مثل هذا الوعي (ص. 27).

الوعي المطابق إذاً، كما نرى مراراً وتكراراً في خطاب الحافظ، هو الوعي الذي يطابق حاجات التقدم التاريخي للجماعة، أي الوعي القادر على إدراك الواقع وبلورة السياسات والاستراتيجيات الواجب تبنيها كجماعة لتحقيق مصلحتها ضمن متطلبات لحظة تاريخية ما، وهو في حالة الوعي الوحدوي الذي يمكن الطلائع القومية من إدراك عوائق الوحدة، ومن تجاوزها بشكل عقلائي وديموقراطي، لكن مفهوم "المطابقة" ليس مبهماً البتة عند ياسين الحافظ، بل يمكن استشفافه من طريقة استخدامه له عشرات المرات بمعنى ووعي الجماعة، أو طلائعها، لواقعها ومصلحتها الاستراتيجية في أي ظرف من الظروف، وهو ما يفترض وعياً جمعياً تمثله نخبة الجماعة أو طليعتها، لذلك فإن الحافظ يشير في الفصل المتعلق بالوحدة المصرية-السورية إلى أن النخبة المصرية التي أدارت الوحدة مع سورية، باستثناء عبدالناصر ذاته طبعاً، لم تمتلك وعياً مطابقاً لما يتطلبه الحفاظ على الوحدة في الإقليم الشمالي، وهو ما سمح للمؤامرات على الوحدة بأن تنجح. يقول الحافظ: "لقد قتلت الوحدة بسبب قصور ووعي النخبة التي كانت تمسك بالزمام في الإقليم السوري، وكان ذلك القصور انعكاساً لقصور ووعي النظام الناصري ككل" (ص. 68)، من دون أن ينكر وجود تأمر على الوحدة، كان يمكن تجاوزه لو وجد ووعي مطابق لدى من يتصدى له.

أخيراً، في لبنان، وقف ياسين الحافظ ضد شعار "عزل الكتائب" الذي رفعتة القوى الوطنية واليسارية اللبنانية لأنه وضع حزب الكتائب في موضع دفاع عن الصف المسيحي، وزاد من ثقافته حولها، والمهم برأي الحافظ هو عزل الكتائب عن الجمهور المسيحي (ص. 155)، وهو موقف مخالف للإجماع الوطني والقومي واليساري في لبنان آنذاك بالمناسبة، لكن الحافظ كان يطرح فكرة الاندماج على قاعدة المواطنة المتساوية، لا على قاعدة دمج "الأقليات" بالأكثرية العربية السنية، كما يمكن أن يفهم خطأ من يقتطف كلامه خارج السياق. فلننظر ماذا يقول الحافظ على هذا الصعيد:



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

- بما أن المسيحيين عامةً والموارنة خاصةً يبقون أقلية، فإنهم لا يستطيعون اتخاذ القرار التاريخي بقومنة المجتمع اللبناني ثم العربي وعقلنته وتحديثه، على الرغم من أنهم أكثر حداثةً.  
- عبء هذه المسؤولية يقع على عاتق النخبة والإنتلجنسيا السنية بوجه خاص، والإسلامية الأخرى بوجه عام، لأنها تمثل الأغلبية، وتتحدى بشعور المسؤولية القومية، غير أنها لن تكون قادرة على لعب مثل هذا الدور إن لم تتجاوز حاجز التقليد (ص. 167-168)، أي إذا لم تتجاوز صفتها السنية إلى صفتها الوطنية والقومية، ويسرف الحافظ من ثم في نقد الطائفية الأكثروية.

- وفي تأييده للموقف السوري في لبنان عام 1976 يقول الحافظ: "لقد كانت السياسة السورية على درجة من الواقعية، بحيث أدركت أنه، في ظل الانقسام الطائفي الحاد القائم، وفي ظل ميزان القوى المحلي اللبناني، لا بد من التفاهم مع المسيحيين، وبالتحديد مع من يمثلهم فعلياً، وأن الحل بالتالي لا يمكن إلا أن يأخذ صيغةً تسوية، (على الرغم من أن) بعض أطراف الصف الإسلامي كان يريد أن يأتي الوزن السوري بحل انتصاري يفرض على الصف المسيحي" (ص. 170-169).

- إطلاق الحزب التقدمي الاشتراكي شعاراً علمانياً في آذار 1976 لم يقنع ياسين الحافظ، فقد عد الصراع في لبنان طائفيًا عامودياً، لا طبقيًا أفقيًا، واعتبر الطرح العلماني لدى الحركة الوطنية اللبنانية في المرحلة الثانية من الحرب الأهلية بعد عام 1976 مجرد غطاء دعائي لطائفية أكثروية مضادة تهدف للوصول للسلطة عبر انتخابات علمانية من دون أن يكون الوعي مطابقاً علمانياً، أي في ظل عملية تصويت يستقطب فيها المواطنون على أساس طائفي (ص. 198-197)، من دون أن يكون لديهم وعي مواطنة، لتفرز أغلبية من طوائف محددة، ويتساءل الحافظ: لماذا لم يطرح كمال جنبلاط البرنامج العلماني قبل الحرب، خلال ربع قرن من تأسيسه!؟

قد يجد المرء الكثير ليجتدل فيه مع الحافظ في الشأن اللبناني، لكن هذه المعالجة طالت أكثر مما يجب، من دون أن أفي "في المسألة القومية الديموقراطية" نصف حقه، أو أقل، ولذلك أجد نفسي مضطراً للختم هنا، على أمل أن يقوم القارئ الكريم بقراءة الكتاب ليغرف من كنوزه بنفسه، وليقرر ما يتفق معه فيه وما يختلف.

## الصفحة الثقافية: السفر عبر الأزمان في فيلمي "مريم" و"الاعتراف"

### طالب جميل



يعتبر الزمن عنصراً مهماً في العمل السينمائي كمحرك للأحداث وخلفية للتفاصيل التي تستند عليها الشخصيات، وهو يساهم في تحسين القراءة الجمالية للعمل، وعادة ما تكون المرونة العالية والسلاسة بالانتقال بين الأزمنة إضافة قيمة للفيلم فتمنح المشاهد فرصة للمزيد من التأمل والبحث على مفاصل الحكاية الموزعة بين عدة أزمنة.

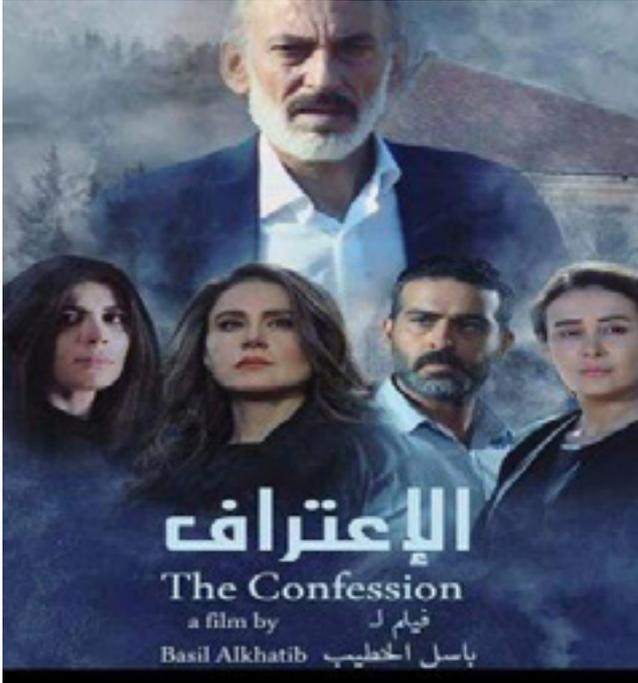
القاسم المشترك بين فيلمي (مريم) و (الاعتراف) أنهما يحملان توقيع نفس المخرج وهو (باسل الخطيب)، وأنهما ينتميان لنفس المدرسة، وهي مدرسة السينما السورية التي يمكن اعتبارها مدرسة لها جمالياتها وأساليبها وأدواتها في العمل، وعادة ما تعبر عنها إنتاجات المؤسسة العامة للسينما في سورية.

حاول المخرج من خلال هذين الفيلمين تقديم محاكاة مختلفة للحرب التي تعرضت لها سورية في سنوات ربيع الخراب الذي داهم المنطقة، وفكرة الحرب هي الوقود الأساسي لكلا الفيلمين بأدوات تعبير مختلفة وبقصص لا تتشابه من



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد



حيث الشكل والإطار العام لكنها تقترب من بعضها البعض في محطات كثيرة وربما تلتقي في بعض الأحيان، لكنها تؤكد على قيمة الحب كسبر وضرورة للبقاء.

طريقة السرد في كل فيلم كانت تعتمد على السفر بين الماضي والحاضر عبر مشاهد تخللتها زيارات للماضي بأسلوب (الفاش باك)، حيث تغوص الشخصيات في ماضيها وتبحث في ذاكرتها عن بعض الأحداث التي تضطر لسردها خدمة للحدث الحالي الذي يحدث في الزمن الحاضر، فلا يكتمل حضور الشخصيات في الحاضر إلا بربطها مع ماضيها.

في فيلم (مريم) وزع المخرج مشاهد الفيلم بين ثلاثة أزمان مرتبطة بتاريخ سورية خلال مائة عام، فتنتهي الحكاية الأولى في الفيلم إلى عام 1918 مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وخلال مرحلة انتهاء الاحتلال العثماني حيث تلقي (مريم) الفتاة صاحبة الصوت الجميل مصرعها حرقاً أثناء استعدادها لأداء وصلة غنائية أمام أحد وجهاء البلدة، أما الحكاية الثانية فتعود لحرب عام 1967، وتجري أحداثها في منطقة القنيطرة حيث تجد (مريم) الأرملة نفسها ضحية للعنوان الصهيوني لتترك ابنتها تعيش وحيدة، بينما الحكاية الثالثة حكاية الزمن المضارع فتعود لعام 2012 حين ترفض مريم (الحفيدة) أن يقوم والدها بوضع أمه (التي هي شقيقة مريم الأولى) في دار للمسنين.

عبر الفيلم تكون هنالك عملية انتقال بين الأماكن والأزمنة الثلاث تجعل الفيلم يسير بخط أفقي لا يتطلب انتظار ذروة للأحداث أو نهاية ما متوقعة، مع الحفاظ على تجانس معين يحمل في طياته بعض الإثارة والتشويق من خلال مشاهد واقعية مقدمة بنزعة شعرية تحمل دلالات إنسانية أحياناً وسياسية في أحيان أخرى.

ظهر الفيلم وكأنه يقدم عملية سفر وترحال بين أزمان مختلفة عبر خيارات إخراجية اشتغل عليها المخرج فقدم من خلالها أفكاراً عن علاقة التاريخ بالإنسان ونسج علاقة ما بين الواقع والخيال وبحث عن الحب في مستنقعات الموت عبر سينما شعرية لا تخلو من الهواجس والأحلام والكوابيس.

أما الفيلم الآخر (الإعتراف) فكان قريباً أكثر من الواقع عبر سردٍ لرواية من السهل الاقتناع بأنها أقرب لتكون حقيقية، تتقاطع فيها أقدار ومصائر الشخصيات من الآباء والأبناء، فتطورت القصة بشكل تدريجي لتصل إلى الذروة في النهاية، مع حفاظ المخرج على نفس الأسلوب الذي اتبعه في فيلم (مريم) عبر الربط بين الماضي والحاضر، لكن بشكل مختلف، حيث تبحث الشخصيات الرئيسية في الفيلم في ماضيها العائلي الذي ارتبط بحقبة مأساوية مليئة بالحيرة والغموض لترتبط بمستقبلٍ أكثر غموضاً.

تدور أحداث الفيلم في زمنين، الأول خلال عام 1980 من القرن الماضي، والذي تعرضت فيه سورية للإرهاب التكفيرى الذي تجسد بجماعة الإخوان المسلمين، والثاني خلال الزمن الحالي، أو خلال عام 2017، عندما كانت سورية تتعرض لجرائم وإرهاب التنظيمات الإرهابية من شتى الأصول والمنابت بعد أن أخذت طابعاً أكثر وحشية ودموية، خاصة أنها كانت تتمتع بقوة وتحظى بدعم وتمويل من دول عظمى.

قصة الفيلم تدور حول (أبو جاد) الذي عمل مساحاً للأراضي عندما كان شاباً، وحينها التقى في طريق عودته لبيته بامرأة هاربة من بطش زوجها الذي ينتمى لجماعة إرهابية، فتغيرت حياته تماماً بقدم تلك المرأة التي ترفض زوجته وجودها والتي يضطر لتركها من أجل حماية المرأة الهاربة، وبعد سنوات طويلة تعود ابنة تلك المرأة (تيماء) لتدخل حياته من جديد وتضعه أمام ذكرياته، فيما يقتل ابنه (جاد) عندما يحاول إنقاذها من شر أبيها وشقيقها الإرهابيين.



لائحة القومى العربى

العدد رقم (69) صدر فى 1 أيار عام 2020 للميلاد

تنوزع المشاهد بين الزمن الماضى والحاضر فيبدأ فى الماضى ثم تعود للحاضر بين الحين والآخر، ولكي تتضح حكاية (أبو جاد) فى الفيلم لا بد وأن يعود بالذاكرة إلى الماضى وينتقل بالزمن عدة مرات خاصة عندما يروي ما حدث معه لابنه (جاد) أو للفتاة (تيماء)، وعادة ما تكون مشاهد الماضى قصيرة ومكثفة تُبرز الأفكار الرئيسية التي يحتاجها المشاهد ليربطها بأحداث المضارع بأقل تشويش ممكن.

فى مثل هذه النوعية من الأفلام يكون استخدام ذكريات الماضى أسلوباً مفيداً لبدء القصة وسردها ولتنويه المشاهد للأحداث التي حصلت مع الشخصيات فى الماضى، لأن بعض الأحداث التي تحدث بالحاضر تكون نتيجة أو ردة فعلٍ كانتقام وتصفية حساب لحدثٍ كان فى الماضى، وقد حاول المخرج فى كلا التجربتين التنقل والترحال بين الماضى والحاضر للدفع بالمشاهد لفهم خلفيات الشخصيات وطبيعة علاقاتهم ودوافعهم التي تفسر كثيراً من سلوكياتهم، كذلك يجري تعطيل الترتيب الزمني والمسار السردى للأحداث لإضافة نوع من التشويق والمفاجأة، وأحياناً بعض العمق والتعقيد للابتعاد عن الطرح المباشر السلس والبسيط، وبالتالي زيادة الإدراك والفهم لما يحدث فى العمل بطرح غير مباشر، كما ويساعد ذلك على ظهور أسئلة محيرة أثناء العرض تجبر على المتابعة للحصول على إجابة، وفى كل مشهد تظهر إجابة ناقصة إلى حين الوصول إلى البداية الأولى المرتبطة بالنهاية.

فى تجربتي (مريم) و (الاعتراف) المختلفتين من حيث الطرح الزمني تجنب المخرج سلوك مسار الزمن الوحيد غير القابل للانعكاس والمتجه من الماضى إلى المستقبل مروراً بالحاضر، بل حاول تقديم أكثر من زمن فاقتطع من الماضى ما يلزم ليكمل به حكايات الحاضر وتجاوز تقديم العمل بزمن ثابت، لتكتمل الحكايا وتصل الأفكار وفق الرؤيا المخطط لها.

### قصيدة العدد:

#### فى المغرب العربى/ بدر شاكر السياب



قرأت اسمي على صخرة  
هنا، فى وحشة الصحراء!  
على أجرة حمراء  
على قبرٍ فكيف يحس إنسانٌ يرى قبره؟  
يراه وإنه ليحار فيه:  
أحي هو أم ميت؟ فما يكفيه  
أن يرى ظلاً له على الرمال  
كمئذنة معفرة  
كمقبرة  
كمجد زال!  
كمئذنة تزدد فوقها اسم الله  
وحط اسم له فيها  
وكان محمداً نقشاً على أجرة خضراء  
يزهو فى أعاليها  
فأمسى تأكل الغبراء  
والنيران، من معناه  
ويركله الغزاة بلا حذاء  
بلا قدم



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

وتنزفُ منه، دونَ دمٍ  
جراحُ دونما ألمٍ  
فقد ماتَ  
ومتنا فيه، من موتى ومن أحياءٍ  
فنحنُ جميعنا أموات  
أنا ومحمدُ واللَّهُ  
وهذا قبرُنا أنقاضُ مُدْذَنَةٍ معفّرةٍ  
عليها يكتبُ اسمُ محمدٍ واللّه  
على كسرٍ مبعثرةٍ  
من الأجرِّ والفخارِ  
فيا قبرَ الإلهِ، على النهارِ  
ظلٌّ لألفِ حربةٍ وفيلٍ  
ولون أبرهه  
وما عكسته منه يدُ الدليلِ  
والكعبةُ المحزونةُ المشوّهةُ  
قرأتُ اسمي على صخره  
على قبرينِ بينهما مدى أجيالٍ  
يجعلُ هذه الحفرةُ  
تضمُّ اثنين: جدّ أبي، ومحضَ رمالٍ  
ومحضَ نثارةٍ سوداءٍ منه، استنزلا قبره  
وإيائي، ابنه في موته والمضغّة الصلصال

•••

وكانَ يطوفُ من جدّي  
مع المدِّ  
هتافُ يملأ الشيطان: يا ودياننا تُوري!  
ويا هذا الدّمُ الباقي على الأجيالِ  
يا إرثَ الجماهيرِ  
تشظُّ الآنَ واسحقُ هذه الأغلالِ  
وكالزلالِ  
هزُّ النيرِ، أو فاسحقه واسحقنا مع النيرِ  
وكانَ إلّهُنا يختالُ  
بينَ عصائبِ الأبطالِ  
من زندٍ إلى زندٍ  
ومن بندٍ إلى بندٍ

•••

إلهُ الكعبةِ الجبارِ  
تدرعُ أمسٍ في ذي قارِ  
بدرعٍ من دمِ النعمانِ في حافاتِها آثارُ



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

إله محمد وإله آبائي من العرب  
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوار  
وفي يافا رآه القوم بيكي في بقايا دار  
وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحب  
جريحاً كان في أحياننا يمشي ويستجدي  
فلم نضمد له جرحاً  
ولا ضحى  
له منا بغير الخبز والإنعام من عبدا!

•••

وأصوات المصلين ارتعاش من مرآئيه  
إذا سجدوا ينز دُم  
فيسرع بالضماد فم  
بآيات يغض الجرح منها خير ما فيه  
تداوي خوفنا من علمنا أننا سنحييه  
إذا ما هلك الثوار منا: "نحن نفديه"

•••

أغار، من الظلام على قرانا  
فأحرقهن، سرب من جراد  
كأن مياة دجلة، حيث ولي  
تتم عليه بالدم والمداد  
أليس هو الذي فجأ الحبالى  
قضاؤه، فما ولدن سوى رماد؟  
وأنعل، بالأهلة في بقايا  
مآذنها، سنابلك من جواد؟  
وجاء الشام يسحب في تراها  
خطى أسدين جاعاً في الفواد؟  
فأطعم أجوع الأسدين عيسى  
وبل صداه من ماء العماد  
وعض نبي مكة... فالصحاري  
وكل الشرق ينفرد للجهاد؟

•••

أعاد، اليوم، كي يفتص من أننا دحرناه؟  
وأن الله باق في قرانا، ما قتلنا؟  
ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟  
ولا بالمال بعناه  
كما باعوا  
إلهم الذي صنعوه من ذهب كدحناه؟  
كما أكلوه إذ جاعوا



لائحة القومي العربي

العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

إلههم الذي من خبزنا الدامي جبلناه؟  
وفي باريس تتخذُ البغايا  
وسائدهن من ألم المسيح  
وبات العقم يزرع في حشاها  
فمُ التنين: يشهقُ بالفحيح  
ويقذف من حديد في حمانا  
جحافلُ كالفوارس، دون روح  
تجدُ وراء مكة في الصياصي  
أقمناها، ويثرب في السفوح

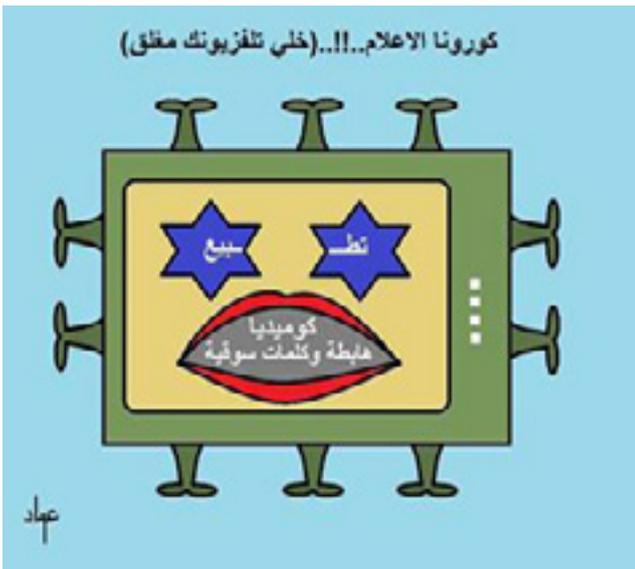
•••

قرأتُ اسمي على صخره  
وبين اسمين في الصحراء  
تنفَسَ عالمُ الأحياء  
كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض  
ومن آجرة حمراء ماثلة على حفرة  
أضاء ملامح الأرض  
بلا ومض  
دمٌ فيها، فسماها  
لتأخذ منه معناها  
لأعرف أنها أرضي  
لأعرف أنها بعضي  
لأعرف أنها ماضي، لا أحياء لولاها  
وأني ميتٌ لولاه، أمشي بين موتاه  
أذاك الصاحبُ المكتظ بالراياتِ وادينا؟  
أهذا لونُ ماضينا  
تضوُّ من كوى "الحمراء"  
ومن آجرة خضراء  
عليها تكتبُ اسمَ اللهِ بقاءً من دمِ فينا؟  
أنبرُ من أذان الفجر؟ أم تكبيره الثوار  
تعلو من صياصينا...؟  
تمخضتِ القبورُ لتنتشر الموتى ملايينا  
وهبَّ محمدٌ وإلهه العربي والأنصارُ  
إنَّ إلهنا فينا.



العدد رقم (69) صدر في 1 أيار عام 2020 للميلاد

### رسم العدد: عيد العمال ورسوم أخرى



الإمبريالية هي الوباء

انتهى العدد